

مير نشوء البعث

إذا كانت البرامج^(١) هي أهم ما يصف الاحزاب ويعرفها، فثمة شيء آخر قلما يعيره الناس اهتماماً مع انه لا يقل عن البرامج قيمة وأهمية هو: الحالة النفسية التي يصدر عنها الحزب.

لقد نشأ حزب «البعث العربي» في وقت وظروف كانت فيها ثقة الامة بأفرادها وقادتها قد تزعزعت وأوشكت ان تنهار، فالقيادة القديمة التي أولاهها الشعب ثقته في بدء مرحلة النضال السليبي عجزت عن مجاراة الشعب في نضاله وأخذت تساوم الاجنبي على إنهاء هذا النضال وأفتتحت عهد السياسة الايجابية قبل الاوان واستطاعت ان تقيم الدليل بأقصر مدة ممكنة على نفعيتها وأنتهازيتها وضعف كفاءتها.

لقد خيبت القيادة القديمة أمل الشعب فيها في نواح رئيسية ثلاث: فهي تراجعت عن أمنية الشعب العربي في الوحدة العربية الكبرى وكادت تنحصر في نطاق العمل القطري، وهي قد نفضت يدها من العمل الشعبي النضالي واستسلمت لوعود الاجنبي ومغريات الحكم، وهي أخيراً قد أظهرت في حكمها من ضروب الفوضى والفساد ومن أساليب الاستئثار والاستثمار ما هوى بالحركة العربية من سماء الرسالة الى حضيض الحرفة والتجارة.

تلك هي الحالة النفسية التي كانت تسود الشعب والتي أستدعت ظهور تصحيح لها فكان حزب «البعث العربي». ونعتقد ان عكس هذه الحالة هو الذي كان سائداً عند ظهور الحركة الوطنية القديمة وتشكل حزب الكتلة.

(١) كلمة الاستاذ ميشيل عفلق في حفلة البعث الانتخابية. نشرت في جريدة «البعث»، العدد ٢٠٠ و٢٠١.

كانت الامة اذ ذاك ضعيفة الثقة بنفسها لذلك منحت ثقتها سهلة رخيصة لأي فرد كان يتقدم لخدمتها ويدّعي تمثيل ارادتها والقدرة على تحقيق هذه الارادة . كان أهم شيء في نظر الشعب في تلك الاوقات هو ان يصمد لوطأة الاستعمار ويبقي على حياته ووجوده، غير مبال بالشكل الذي يمكن ان تتخذه تلك الحياة، وبالمعنى الذي يتضمنه ذلك الوجود، لقد كانت المسألة مسألة بقاء او فناء .

ولكن بعد أن قطع الشعب العربي أشواطا في الجهاد والنضال أعادت له شعوره ببعظم أهدافه ومراميه وحقيقة وجوده العربي الاصيل، فلم تعد المشكلة بالنسبة اليه مجرد البقاء والحياة، بل الحياة العربية البناء الصادقة .

هكذا أدت به المقارنة بين آماله الواسعة وأمكانياته الغنيّة وبين عجز القيادة القديمة وتقصيرها الى نزع الثقة من كل من يتصدى للقيادة، والى التشكيك في مقاصد كل من ينبري للعمل العام .

في تلك المرحلة الجديدة من تاريخنا الحديث، كاد عجز القيادة الوطنية ان يسلم افراد الامة لليأس وما يجره اليأس من جمود او انحراف . لقد وجدت الدعوات الضارة والحركات الشعوبية مرتعاً خصيباً لعملها وافسادها، وأوجدت عذراً وذريعة لكل من أغراهم اليأس بالفرار من تحمل مسؤولية امتهم فراخوا يلوذون بأحلام عقيمة مستحيلة تخرجهم من دائرة قوميتهم وشخصية أمتهم وتاريخها، او يؤثرون التقلص والانكماش في نطاق قوميات صغيرة مصطنعة، كل ذلك بدافع الفرار من مجابهة الواقع وواجب معالجته المعالجة الصحيحة الناجعة .

وقد كان الواجب ان توجد الفكرة التي ترتفع الى مستوى استعداد الشعب العربي للنضال، وتوسع لكل ما يتمخض عنه هذا الشعب من قوى الانشاء والابداع .

سيذكر الشعب العربي «البعث العربي» انه وجد في الوقت المناسب والظرف العصيب ليرجع بأسلوبه النضالي المثالي الى الامة ثقتها بنفسها وبأفرادها، وليتسع بفكرته الانقلابية الايجابية الشاملة لكل ما يلبي حاجاتها دون ما رجعة او انحراف، دون ما جمود او جحود .

ولكن «البعث العربي» ما برح يذكر وهو لن ينسى ابداً ان وجوده كله مستمد من

الشعب العربي وانه لافضل لرجالہ وافرادہ في تكوين الفكرة وتنظيم الحركة، لانهم لم يكونوا سوى مفصحين عن حاجة عميقة في الشعب، وناقلين صادقين لرغبته التي لايفخرون بغير السبق الى تلمسها وتلبية ندائها.

أيها الاخوان

حدثكم الخطباء عن الانتخابات وهي حديث هذه الايام وقالوا ان الشعب ينتظر ان تكون نتيجة الانتخابات انهاء لفلسفة عميقة مشؤومة، انهاء لعهد اسود، انهاء لصورة كاذبة اراد القائمون على الحكم في سوريا وفي باقي الاقطار العربية ان يظهروها كأنها الصورة الحقيقية لأمتنا الكريمة الایبة.

والواقع هو ان في البلاد العربية اليوم اتجاهين يحمل كل منهما عن المجتمع العربي صورة جد مختلفة عن الصورة الاخرى، وعلى الشعب اليوم عندما يقوم بممارسة حقه في الانتخاب ان يختار بينهما: مجتمع سادة وعبيد، يحكم فيه الشعب بالضغط والخوف والتلاعب والكذب في سبيل حصر الجاه والثروة بين ايدي عدد قليل من محتكري النفوذ ومحترفي السياسة ويكون فيه طريق العمل والتقدم مفتوحا ومعهدا امام المواطنين بقدر ما يظهرونه من خضوع وممالأة للحاكمين ومن استخذاء امام جورهم وسكوت على مؤامراتهم وفضائحهم وتسابق في خدمتهم وتنفيذ اغراضهم. تلك هي الصورة التي تسعى الفئة الحاكمة الى فرضها وتحققها.

اما الصورة الثانية فهي التي تنبعث عن ارادة الشعب وتتجاوب مع اعمق حاجاته ومشاعره وخصائصه والتي تجد اقوى واصدق تعبير لها في افكار الجيل العربي الجديد وحركاته، فهي صورة مجتمع يكون الشعب فيه مالكا لمقدراته ممثلا برجال يبنشقون من اعماقه ويتحسسون بآماله وآلامه، ويدركون ادراكاً عفويماً فقره وجهله ومرضه، ويشعرون بمسؤوليتهم الخطيرة حياله ويمثلون عبقريته الكامنة ونبوغه المكبوت.

مجتمع ينافس ماضيه ويطمح الى استبقائه، وينقلب على حاضره، ويحشد كل قواه وامكانياته في سبيل مستقبله. مجتمع تعلق فيه ارادة الشعب على كل ارادة او سلطة او حكومة او زعامة.

هذا ما يريده الجيل العربي الجديد، وذلك ما تريده الفئة الحاكمة، من اقطاعي

البلاد ومحترفي السياسة فيها.

ومن هنا تظهر الخطورة الكبرى التي تحملها - في نظرنا ونظر الشعب - مرحلة الانتخابات القائمة حاليا، لان على نتائجها سترتب انتصار احدى الارادتين: ارادة الفئة الحاكمة او ارادة الجيل العربي الجديد.

فالشعب العربي وفي طبيعته الجيل العربي الجديد يدرك تماما الآن ان سوريا التي سبقت غيرها من الاقطار العربية في التحرر النهائي من الاجنبي تتحمل اليوم مسؤوليتين خطيرتين تجاه نفسها وتجاه الامة العربية كلها. فهي مسؤولة اولاً عن تقديم البرهان القاطع على ان الاستقلال انما يعني الجدارة والكفاءة لفهم الحرية المنسجمة مع الواجبات القومية، وفهم الحكم الدستوري الاستقلالي وتحقيق الانقلاب على كل ما خلفته عهود الاستعمار والظلام من فساد الانظمة الاجتماعية، وتقييد لقوى الشعب المبدعة، وتشويه لقيم العروبة الرفيعة التي كانت دوماً مؤتلفة ومترادفة مع فكرة الحق والحرية والعدالة.

والمسؤولية الثانية التي تترتب على سوريا في العهد الاستقلالي العتيدي هي مسؤولياتها تجاه الاقطار العربية وواجبها في العمل على تحريرها من كل نفوذ اجنبي والسير بها نحو الوحدة المنشودة والعمل على بناء العروبة الحرة الموحدة، ودفع الاخطار عنها، تلك الاخطار المعنوية التي تهدد اخلاقها وكيانها، والاطار المادية التي تهدد ارضها وثرواتها.

وواضح جدا ان الاحداث التي تعاقبت على البلاد منذ الانتخاب الماضي حتى الآن، ومواقف الفئة الحاكمة حيال هذه الاحداث واساليبها في معالجة المشاكل الداخلية والخارجية قد برهنت تماما على ان هذه الفئة قد عجزت كل العجز عن القيام بأعباء مسؤوليات العهد الاستقلالي الضخمة، ذلك لانها اقامت حكماً مهلهلاً متداعياً لا يستند الى ارادة الشعب ولا يسيره برنامج علمي واضح منبثق عن دراسة شاملة عميقة لمشاكل الوطن وأمانيه.

أيها الاخوان

تحتل دمشق في هذا الظرف مكانا بارزا في الركب العربي له اثره البالغ في تقرير

مصير سوريا ومصير البلاد العربية، فهي مفتاح السياسة السورية، والى حد كبير مفتاح السياسة العربية ايضا. ذلك لانها غدت بعد فوزها باستقلالها الناجز اليد الطليقة من الجسم العربي المكبل، والزاوية الحرة من الصرح العربي الذي تعبت فيه اهواء المستعمر وتسيطر عليه فئات من صنائعه ومرترقيه.

ومما يعزز اهمية دمشق ايضا هو ان الحكم في سوريا يتأثر بالدرجة الاولى بجوها وتياراتها. والفئة الحاكمة، التي تدرك ذلك كله، تحرص كل الحرص على ان لا يفلت الامر من يدها في هذه المدينة. فهي قد تتساهل وتنحني امام موجات المعارضة في المناطق الاخرى، ولكنها تبذل قواها كلها وتطلق كل ما لديها من اساليب المناورات والدرس والفرقة لكي تحطم المعارضة في دمشق، وتفرض رجالاتها نواباً عليها وتصيح سيدة الموقف فيها.

فدمشق مسؤولة اذن عن قيادة معركة الانتخابات نحو الظفر، وتغيير مجرى هذا الحكم بتأييد الرجال الاحرار الذين يدركون هذا الواقع الفاسد ويلمسون استياء الشعب ويرسمون البرامج العملية والعلمية الصحيحة للمستقبل.

ان الدلائل كلها تنذر بأن الشعب قد بلغ حداً كبيراً من الاستياء، وان التناقض بين حقيقة الشعب وواقعه، بين ارادته وبين السلطات الرسمية التي تدعي تمثيله هو تناقض فاضح مخيف.

لقد بلغ هذا الاستياء والتناقض حداً خطيراً لا يزول الا بالنضال القوي العنيد والمعارضة الواعية الراضة لهذا الحكم هي البناء والغيرة على الاستقلال بعينهما وهي نداء الضمير العربي الذي لا يقيم على ضيم ولا يسكت عن ظلم ولا يصبر على اختلال ميزان الكفاءة والعدالة والمساواة.

أيها الاخوان

هذا ظرف للكلام والتبشير والدعاية في نظر غيرنا، وهو في نظرنا اهم وأسمى من الدعاية للأحزاب والاشخاص لاننا نعتبره ظرف التوجيه ومتابعة النضال القومي المجرد عن كل غاية حزبية او شخصية ضيقة، ونعتقد ان له اصدق مساس بالمصلحة القومية العليا. فلنترك الدعاية لغيرنا ولنبادر الى المسؤولية العامة الملقاة على عاتق كل منا، تلك

المسؤولية الضخمة التي ترمي الى تحويل الشعب عن السير في طريق الهاوية .
ان البعث العربي الذي تكلم وعمل في الاوقات التي كان الكلام فيها محرماً
والعمل متعذراً أيام الاستعمار ووطأته الشديدة والطغيان الداخلي ليس بحاجة لان
يتكلم اليوم كثيراً من اجل الدعاية لنفسه لانه مؤمن بأن عليه واجباً قومياً خطيراً هو ان
يوجه ويذكر . وان الاساس الذي بني عليه الحزب من الثقة التي لاحد لها بالشعب
العربي هو الذي يسمح له بان يتفائل بالمستقبل كثيراً وان ينتظر من الشعب الذي خطا
خطوتين جبارتين في معركة الملاكات ومعركة قانون الانتخاب الاستجابة الى دعوته
الصادقة المخلصة لحل أزمة الحكم الفاسد والتطويح بهذه الطبقة النفعية المستأثرة
والمستعبدة لمصالحها الخاصة .

أيها الاخون

ان البعث العربي يعرف مكانه الحقيقي في موكب النضال ، وهو اذ يقدم على
تحمل مسؤولياته الجسيمة يدرك تماماً ان الشعب قد يتساهل مع المسيئين ولكنه
لا يتساهل مع المخلصين لانه ينتظر منهم أن يحققوا كل الآمال وهذا ما ينتظره في
المستقبل القريب .

٢٠ حزيران ١٩٤٧